
شرح
القواعد الأربع
تأليف
محمد بن سعد بن عبد الرحمن الحنين
مصدر هذه المادة :
الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com
دار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

الحمد لله الذي خلق خلقه أطواراً، وصرفهم في أطوار التخليق كيف شاء عزة واقتداراً، فأرسل الرسل إلى المكلفين إعـــذاراً منـــه وإنذاراً، فأتم بهم على من تبع سبيلهم نعمته السابغة، وأقام بهم على من خالف نهجهم حجته البالغة، فنصب الدليل، وأنـــار الســـبيل، وأزاح العلل، وقطع المعاذير، وأقام الحجة وأوضح المحجة .

وأصلى وأسلم على محمد عبده وسوله وأمينه علـــى وحيـــه، أرسله رحمة للعالمين، وقدوة للعالمين، وآله وصحبه وسلم تســـليماً كثيراً .

أما بعد : فإن أولى ما يتنافس به المتنافسون، وأحـــــرى مـــا يتسابق فيه المتسابقون، ما كان بسعادة العبد في معاشـــه ومعـــاده كفيلاً، وعلى طريق هذه السعادة دليلاً : وذلـــك العلـــم النـــافع، والعمل الصالح، اللذان لا سعادة للعبد إلا بهما، ولا نجـــاة لـــه إلا بالتعليق بسببهما، فمن رزقهما فقد فاز وغنم، ومن حرمهما فالخير كلّه حُرم، وهما مورد انقسام العباد إلى مرحوم ومحروم، وبهما يتميز البر من الفاجر، والتقي من الغوي، والظالم من المظلوم .

ولّما كان العلم للعمل قريناً وشافعاً، وشرفه لشرف معلومـــه تابعاً : كان أشرف العلوم على الإطلاق علم التوحيد [1] .

---

(1) " إعلام الموقعين" لابن القيم (١/١٤-١٥) .

ولهذا اهتم به العلماء اهتماماً كبيراً، وصنفت فيه المصـــنفات الكثيرة ما بين مطول ومختصر، وكان من هؤلاء المصنفين الكثيرة ما بين مطول ومختصر، وكان من هؤلاء المصنفين الأماجد : الإمـــام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – الذي عـــاش زمنـــــاً فيـــه (انتفضت عرى الإسلام، وعُبِدَت الكواكب والنجوم، وعُظِّمـــت القبور وبُنيت عليها المساجد، وعبدت تلك الضرائح والمشاهد .

واعتمد عليها في المهمات دون الصمد الواحد .... فشمر عن ساعد جده واجتهاده، وأعلن بالنصح لله ولكتابه ورسوله وســـائر عباده .

دعا إلى ما دعت إليه الرسل من توحيد الله وعبادته، ونهـــاهم عن الشرك ووسائله وذرائعه ...)[1] . ولم يألُ جهداً في سلوك كل طريق يوصل إلى الحق ومرضاة الرب، بالتصنيف والتعليم وبالمكاتبة والمراسلة.

ومن جملة مصنفاته " القواعد الأربع " وهو مصنف قليـــل لفظه، عظيم نفعه، يعالج قضية من أكبر القضايا، إنها فتنة الشـــرك بالأولياء والصالحين، صاغها المؤلف – رحمه الله – بعلـــم راســـخ ودراية فائقة، مستقى نبعها كتاب الله، تقى الموحِّـــد هـــذا الـــداء العضال الذي فشا، وترشد طالب الحق والهدى، وتلجم أهل الغـــي والردى .

وقد يسَّر الله شرحه مراراً فكان موقع الاستحسان من بعـــض

(١) الدرر السنية " جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم (١/٦١-١٧) .

الأخوة طلاب العلم، فرأيت إخراجه تعميماً للفائدة، فأعدت النظر فيه حذفاً وإضافة حتى استوى على سوقه .

وقد نهجت في هذا الشرح عدم التطويـــل ؟ لبلـــوغ القصـــد بالتوسط والاختصار .

واعتمدت في إثبات المتن المتبع بالشرح – المطبـــوع ضـــمن المجموعة العلمية السعودية عام ١٣٧٤هـــــ (ص:٢٢-٢٥) الـــتي راجعها وصحح أصولها على مراجع خطية قديمة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم – رحمه الله – .

وختاماً لا يفوتني أن أشكر المشايخ الفضلاء الـــذين تكرمـــوا بمراجعة هذا الشرح والإفادة بالملحوظات القيمة وأخص بالشـــكر فضيلة الشيخين / الدكتور عبد الله بن محمد الغنيمان، والـــدكتور عبد العزيز بن محمد بن على آل عبد اللطيف .

وأسأل الله أن ينفع بهذا الشرح كما نفع بأصله وأن لا يحرمنا من كريم ثوابه، وأن يغفر لنا ولوالدينا ومشايخنا ولمن لهم حق علينا، وأن يعز الإسلام والمسلمين ويذل الشرك والمشركين، إنه سميع قريب .

وكتبه

محمد بن سعد بن عبد الرحمن الحنين

المدرس بالمعهد العلمي في الشفا بالرياض

ص . ب (١٧٤٣) الرمز البريدي (١١٩٢٤)

Fsh 93@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه أربع القواعد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة، وأن يجعلك مباركاً أينما كنت، وأن يجعلك ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر وإذا أذنب استغفر، فإن هذه الثلاث : عنوان السعادة) .

بدأ الشيخ – رحمه الله – هذه القواعد بالبسملة، لأمرين :

١- اقتداءً بكتاب الله تعالى .

٢- تأسياً بالنبي صلى الله عليه وسلم، فإنه كان يبدأ مكاتباته بها، فقد جاء في المتفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في رسالته إلى هرقل : (بسم الله الرحمن الرحيم) من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ....)[1]

قوله : (أسأل الله الكريم) :

ثنَّى بالدعاء، كما هو عادته في مصنفاته، وهذا يدل على حسن عنايته بالمتعلم ومحبته له، والعناية بالمتعلم أدب جم ينبغي للعالم أن يتحلى به لا أن يكون تبليغ العلم هماً يودع أو متاعاً يوضع، ولقد

---

(١) " البخاري " (٧) بدء الوحي . " مسلم " ١٧٧٣

كانت هذه الحلية جمالاً يتلألأ في أخلاق العلماء السابقين لم يكونوا بحملها مثقلين، ولها مضيعين يقول ابن جماعة الكناني رحمه الله وهو يعدد أدب العالم في درسه : (ينبغي أن يعــتني بمصـالح الطالـب، ويعامله بما يعامل به أعز أولاده من الحنو والشفقة عليه، والإحسان إليه، والصبر على جفاء ربما وقع منه، ونقص لا يكاد يخلو الإنسان عنه، وسوء أدب في بعض الأحيان، ويبسط عذره بحسب الإمكان، ويوقفه مع ذلك على ما صدر منه بنصـح وتلطـف، لا بتعنيـف وتعسف، قاصداً بذلك حسن تربيته وتحسين خلقه وإصلاح شـأنه ... وأن يتواضع مع الطالب وكل مسترشد سائل إذا قام بما يجـب عليه من حقوق الله تعالى وحقوقه، ويخفض له جناحه ويلـين لـه جانبه ...)[1].

و(الكريم) اسم من أسماء الله الحسنى فإن الله سمى ووصف نفسه بالكرم وأنَّه الأكرم .

ولفظ الكرم من الألفاظ الجامعة للمحاسن والمحامد لا يراد بـه مجرد الإعطاء بل هو من تمام معناه ؟ فإن الإحسان إلى الغير من تمام المحاسن، والكرم كثرة الخير ويسرته[2] .

ثم إن اسم الكريم والأكرم وما كان في دائرة الأسماء الحسـنى كالعلي والأعلى، والقدير والمقتدر، مما اتفق في أصل المعنى وتغـاير لفظه لا تعد اسماً واحداً – بل يعد كل واحد منها اسمـاً مسـتقلاً

([1]) آداب السامع والمتكلم (١٤٠-١٥٩) .

([2]) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٩٣/١٦) .

بذاته، يقول ابن حجر رحمه الله : (الأسماء المشتقة من صفة واحدة لا يمنع من عدها ؟ فإن فيها التغاير في الجملة فإن بعضـــها يزيـــد بخصوصية على الآخر ليست فيه)[١]

قوله : (ربُّ العرش العظيم) :

العرش لغة : السرير الذي للملك .

وأما عرش الرحمن فهو : سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهـــو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات[٢] .

وقد وصف العرش بصفات منها : العظمة كما في قوله تعالى : (الله لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم)[٣]

ووصف العرش بالذكر كما في هذه الآية الكريمة مـــع أن الله رب كل شيء قيل : لأنه أعظم المخلوقات[٤] .

ووصف العرش بالمجد كما في قوله تعالى : (ذو العرش المجيـــد) بكسر الدال صفة للعرش على قراءة حمزة والكسائي .

ووصف بالكرم كما في قوله تعالى : (لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم) .

قوله : " أن يتولاك في الدنيا والآخرة " :

(١) فتح البخاري (١٩/١١) .
(٢) شرح الطحاوية ابن أبي العز (٣٦٦)
(٣) النمل : الآية ٢٦ .

(٤) تفسير ابن عطية (١٠٦/١٢) .

(الولي) من أسماء الله الحسنى قال تعالى : ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ**﴾ (١)

فالله هو الولي بمعنى أنه يتولى أمور الخلائق وهو مالكهم ومدبر أمرهم .

وله سبحانه ولاية خاصة بعبادة المؤمنين بإخراجهم من الظلمات إلى النور وبإعانتهم ونصرهم(٢) .

قوله : (وأن يجعلك مباركاً أينما كنت) :

هذا الدعاء اقتباس من كلام عيسى عليه السلام في المهد، كما أخبر الله عنه في كتابه العزيز أنَّه قال :﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ**﴾(٣) وقد فُسّرت البركة بتعليم الناس الخير وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(٤)، وغير ذلك من الأقوال ولا تعارض بينها (٥) .

قوله : (وأن يجعلك ممن إذا أُعطى شكر، وإذا اُبتليَ صبر، وإذا

---

(١) الشورى : الآية ٩ .

(٢) تفسير الأسماء الحسنى . سعيد القحطاني (١١٢-١١٣) .

(٣) مريم : الآية ٣١ .

(٤) تفسير ابن كثير (١١٧/٣) .

(٥) الأقوال المختلفة التي تنقل عن السلف في الآية الواحدة غالبها يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : (الخلاف بين السلف في التفسير قليل وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ..) الفتاوى (١٣ / ٣١٣) .

أذنب استغفر، فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة) :

هذه الأحوال الثلاثة لا ينفك عنها العبد بل هو دائم التقلب فيها فهو إما أن يكون في نعمة من نعم الله التي لا تحصى ففرضه فيها الشكر، وإما أن يكون في حال مصيبة وبلاء ففرضه فيها الصبر، وإما أن يكون مقارفاً لذنب فالواجب عليه التوبة والاستغفار[1] .

(1) " الوابل الصيب " (٥، فما بعدها) .
جاء عند الطبراني مرفوعاً (من اُبتلىَ فصبر وأُعطى فشكر، وظُلم فغفر، وظَلم فاستغفر، ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام : من الآية ٨٢)، الحديث ضعيف جداً، ضعفه الألباني في السلسة برقم (٤٥٢٧)، وفي الجامع برقم (٥٣٢٣)

(اعلم أرشدك الله لطاعته : أن الحنيفية ملة إبراهيم : أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١). فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته، فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت، كالحدث إذا دخل في الطهارة، فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار، عرفت أنَّ أهم ما عليك معرفة ذلك، لعل الله أن يخلصك من هذه المشكلة، وهي الشرك بالله، الذي قال الله تعالى فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(٢) وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها في كتابه) .

قوله : (اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين) .

(اعلم) : فعل أمر من العلم، وقد اختلف في مدلوله على أقوال فقيل : العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع(٣) .

كقوله مثلاً : كل المخلوقات لا بد لها من خالق وهو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) الذاريات : الآية ٥٦ .

(٢) النساء : الآية ٤٨ .

(٣) التعريفات للجرجاني (١٥٧) .

فهذا يعد علماً، لأن هذه الحكم قد صدر جازمـــاً ومطابقـــاً للواقع.

وقيل: العلم لا يُعرَّف – وممن ذهب إلى هذا القول ابن العربي المالكي رحمه الله – وعلته في ذلك أن العلم أبين من أن يبين[١] .

وكلمة (أعلم) يؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة فالمعنى : كـــن متهيئاً لما يلقى إليك من العلوم[٢] .

وأما (الرشد): فهو من المنن الكريمة والفضائل العظيمـــة قـــال تعالـــى : ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّـــهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ .

وقد عرّف بأنه الاستقامة على الحق مع صلابته فيه[٣] .

ثم ما الفرق بين الهدى والرشد ؟

ذكر ابن القيم رحمه الله : أن الرشد هو العلم بما ينفع والعمل به.

وأن الرشد والهدى إذا أفرد أحدهما تضمن الآخر وإذا اقترنـــا فالهدى هو العلم بالحق والرشد والعمل به[٤] .

وأما الطاعة فقد عرفت بأنها موافقة الأمر الديني الشرعي[٥] .

(١) عارضة الأحوازي . (١٠/١١٣-١١٤) .
(٢) حاشية الأصول الثلاثة لابن القاسم (٩) .
(٣) " فتح القدير " للشوكاني (٥/٧١) .
(٤) " إغاثة اللهفان " (١/٥٣٧) .
(٥) " شرح الطحاوية " ابن أبي العز الحنفي (١/٣٣٥) .

أي : أن تفعل العبادة على وفق ما أمر الله به[١] .

فمثلاً : الصلاة لا تكون طاعة إلا إذا فعلت كما أمر الله مـــن الإتيان بشرائطها وأركانها وواجباتها .

قوله : (إن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله مخلصة له الدين) : اسم الحنيف قد تقرر في القرآن، وقد فرض الله علـــى النـــاس أن يكونوا حنفاء، فرضه الله على أهل الكتاب ثم على أمـــة محمـــد، وأوجب عليه وعليهم أن يتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً[٢] . قال سبحانه: **﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَـــا كَـــانَ مِـــنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** .

وقال تعالى: **﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّـــا مَـــنْ سَـــفِهَ نَفْسَهُ﴾**.

وقال تعالى: **﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَـــلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** .

ولَمَّا كانت الحنيفية فرضاً لازماً على المكلفين بيَّنـــها المصـــنف رحمه الله بأنها : ملة أبينا إبراهيم عليه السلام .

والملة هي الدين والشرع[٣] .

فالمعنى : أن الحنيفية هي الطريق الديني الذي صار عليه إبراهيم

---

(١) " الكوكب المنير " لابن النجار (٣٨٥/١) .
(٢) " جامع المسائل " شيخ الإسلام ابن تيمية (١٧٩/٥) .
(٣) " أحكام القرآن " للقرطبي (١٣٠/٢) .

عليه السلام، وهو عبادة الله بإخلاص .

والعرب تسمى من عدل عن دين اليهود والنصـــارى حنيفـــاً، ولهذا يوجد في كتب بعض أهل الكتاب من النصارى وغيرهم وفي كلامهم معاداة الحنيف وهم هؤلاء العرب الذين جمعوا بين الحـــج والختان فهم مشركون[(١)] .

والحنيف مأخوذ من الحنف .

والحنف قيل أصله : الميل، فالحنيف هو المائل عـــن الأديـــان الباطلة.

وقيل أصله من الاستقامة وسمى دين إبـــراهيم عليـــه الســـلام بالحنيفية لاستقامته[(٢)] .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى (الحنيف هو المستقيم إلى ربه دون ما سواه .

والحنيفية هي الاستقامة بإخلاص الدين لله وذلك يتضمن حبه تعالى والذل له لا يشرك به شيئاً)[(٣)] .

قوله : (فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته، فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صـــلاة إلا مع الطهارة) أي : أن التوحيد شرط لصـــحة العبـــادة، كمـــا أن

---

(١) " جامع المسائل " شيخ الإسلام ابن تيمية (١٨٤/٥) .
(٢) تفسير الشوكاني (١٦٠/١-١٦١) .
(٣) الفتاوى (٢٣٩/٥)، (٤٦٦/١٠) .

الطهارة شرط لصحة الصلاة، والدليل قوله تعالى : ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾[١] قرن الله الأمر بعبادته بالنهي عن الشـــرك فدل ذلك على أن التوحيد شرط لصحة العبادة .

ثم إن المصنف – رحمه الله – نفي مسمى العبادة عنـــها إذا لم تكن خالصة وهي عبادة المشرك لكننا نجد الله سبحانه أطلق لفـــظ العبادة عليها كما في قوله تعالى : ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَـــا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ**﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿**قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْـــتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ**﴾ الآية .

وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – هذه المســـألة بياناً يتضح به مراد المصنف حاصله : أنَّ لفـــظ العبـــادة جـــاء في النصوص على وجهين :

١– على وجه الإطلاق :

وحينئذٍ يراد به العبادة المطلقة وهي العبادة المقبولة التي هي من عند الله، وهي العبادة الخالصة، فعلى هذا لا يتناول اللفـــظ بهـــذا الاعتبار عبادة المشرك كلفظ الإيمان عند الإطـــلاق لا يتنـــاول إلا الإيمان الحق ولا يتناول إيمان المشركين وهو إقرارهم بتوحيد الربوبية مع شركهم في العبادة .

٣– على وجه التقييد :

لما كان المشرك يعبد الله ويعبد غيره جاز إطلاق لفظ العبـــادة

---

(١) النساء : الآية ٣٦ .

عليه مقيداً، فيقال إنه يعبد الله ويعبد غيره، أو يعبده مشركاً وبذلك جاءت النصوص كالآيتين السابقتين وكذلك قوله تعـــالى : ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**﴾ فـــأطلق لفـــظ العبادة مقيداً عبادتكم مع الله .

ولهذا إذا جاء نفي العبادة عنهم على وجه الإطلاق كقوله تعالى ﴿**وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ**﴾ فليس هو نفياً لما قد سمى عبادة على وجه التقييد؛ بل هو نفي للعبادة المطلقة وهي المقبولة التي من عند الله(١).

فعلم أن مراد المصنف نفي العبادة المطلقة وهي المقبولة التي هي من عند الله ليس نفياً للعبادة على وجه التقييد.

قوله : (فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها) :

شرع المصنف – رحمه الله – في بيان الأحكام المترتبـــة علـــى الشرك في العبادة فبيَّن الحكم الأول وهو فساد العبادة فمتى خـــالط الشرك العبادة أفسدها، فلو أحرم شخص بالحج، ثم استغاث وذبح ونذر لغير الله فسد حجه لقوله تعالى ﴿**وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ وكذلك لو أن شخصاً توضأ ثم أشرك بالله فســـد وضوؤه، يقول ابن قدامة – رحمه الله تعالى - : (الطهـــارة عمـــل وهي باقية حكماً تبطل بمبطلاتها، فيجب أن تحبط بالشرك، ولأنهـــا

(١) الفتاوى (٥٧٣/١٦)، قال الشيخ عبد الله الغنيمان حفظه الله (هـــذا التفصـــيل لا يفيد الفرق الذي أراده المؤلف، فالفرق هو أن العبادة في اللغة تطلق علـــى كـــل معبود إذا قصد بذلك ولكن العبادة في الشرع لا تكـــون عبـــادة إلا إذا كانـــت توحيداً، وهي أن تكون خاصة لله فهذا هو الفرق وليس الفرق الإطلاق والتقييد) .

عبادة يفسدها الحدث فأفسدها الشرك)[١] .

قوله : (وأحبط العمل) :

الحُبُوط فسره بعض العلماء بالبطلان يقول القاضي عياض رحمه الله : أحبط عملك، وحبط عملك، أي : بطل[٢].

والفاسد والباطل مترادفان في المعنى[٣]، لكن لما عطف المصنف رحمه الله الحبوط على الفساد وأضاف الضمير العائد إلى العبادة التي خالطها الشرك وأسند العمل – المعرف بالألف واللام الدال علـــى العموم – إلى الحبوط – جعل حبوط العمل هو الحكم الثاني باعتبار أن المراد بالأول فساد العبادة في نفسها، وأن المراد بالحبوط هنا هو حبوط الأعمال الصالحة التي عملها قبل الشرك، وقد دلَّ على هذا قوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِـــنْ قَبْلِـــكَ لَـــئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[٤] .

يقول المصنف – رحمه الله تعالى – : فإذا (لم يجتنب الشـــرك فهو كافر، ولو كان من أعبد هذه الأمة : يقوم الليـــل، ويصـــوم النهار، قال تعالى : ﴿**وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَـــبِطَ عَـــنْهُمْ مَـــا كَـــانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٥] وتصير عبادته كلها كمن صلى و لم يغتسل من الجنابة،

(١) المغنى (٢٣٨/١) .

(٢) مشارق الأنوار (٢٢١/١) .

(٣) هذا قول الجمهور وذهب الحنفية إلى التفريق بينهما ينظر روضة الناظر لابن قدامة المقدسي (٢٥٢/١-٢٥٣) .

(٤) الزمر : ٦٥

(٥) الأنعام : الآية ٨٨ .

أو كمن يصوم في شدة الحر وهو يزني في أيام الصوم)[١] .

وقد ذكر الإمام ابن القيم – رحمه الله – أن حبوط الأعمـــال على نوعين :

١- عام: وهو حبوط الحسنات كلها بالردة وحبوط السيئات كلها بالتوبة .

٢- خاص: وهو حبوط الحسنات والسيئات بعضـــها بـــبعض وهو الحبوط الجزئي[٢] .

قوله : (وصار صاحبه من الخالدين في النار) : هذا هـــو الحكـــم الثالث من الأحكام المترتبة على جريمة الشرك الأكبر، فإن المشرك إذا مات على شركه من غير توبة، فهو من الخالدين في النار، قال تعالى : ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِـــيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾[٣] .

قوله : (عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلـــك، لعـــل الله أن يخلصك من هذه الشبكة، وهي : الشرك بالله الذي قال الله تعـــالى فيه : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِـــكَ لِمَـــنْ يَشَاءُ**﴾[٤] .

---

(١) " الدرر السنية " (١/١٥٩) .
(٢) " كتاب الصلاة " لابن القيم (٨٦) .
(٣) المائدة : الآية ٧٢ .
(٤) النساء : الآية ٤٨ .

هذا فيه بيان أهمية هذه القواعد وقد بين المصنف رحمه الله تعالى أهميتها أيضاً في مواضع أخرى من رسائله وحاصلها :

١- أن معرفة هذه القواعد وفهمها وقاية للموحد من الوقوع في الشرك .

٢- فيها بيان معنى لا إله إلا الله .

٣- بمعرفتها يتميز الإسلام من الشرك .

يقول المصنف – رحمه الله تعالى – : (فهذه أربع قواعد ذكرها الله في محكم كتابه، يعرف بها الرجل شهادة أن لا إله إلا الله، ويميز بها بين المسلمين والمشركين، فتدبرها يرحمك الله، واصغ إليها فهمك فإنها عظيمة النفع)[1] .

قوله : (الذي قال الله تعالى فيه : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ .

هذا أيضاً من الأحكام المترتبة على الشرك الأكبر وهو أن الله لا يغفره إذا مات صاحبه من غير توبة، أما بقية الكبائر فإن صاحبها إذا مات من غير توبة فهو تحت المشيئة .

كما دلت عليه هذه الآية الكريمة[2] .

---

(1) " الدرر السنية " (٢٧/٢) .

(٢) اختلف العلماء هل المراد بالشرك في هذه الآية الكريمة الأكبر أم مطلق الشرك ؟ على قولين . ينظر القول المفيد شرح كتاب التوحيد ابن عثيمين – رحمه الله – (١١٠/١) .

قوله : (وذلك بمعرفة أربع قواعد) :

المعرفة هي : إدراك الشيء على ما هو عليه[١] .

والله لا يوصف بأنه عارف – وقد حكى ابن حمدان رحمه الله عن القاضي[٢] أنَّ ذلك إجماعاً [٣] – ولكن يوصف الله بأنه عـــالم قال تعالى : ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

وعلة المنع من وصف الله بالمعرفة : أن المعرفة مسبوقة بجهل[٤] ولأن المعرفة أيضاً تشمل العلم والظن[٥] .

لكن هل يوصف علم الله باليقين ؟ لا يوصف علم الله باليقين

---

(١)التعريفات للجرجاني (٢١٨) .

(٢) هو أحمد بن حمدان المتوفي سنة ٦٩٥هـــ صاحب الرعايتين والمراد بالقاضي هنا هو أبو على محمد بن الحسين الفراء والحنابلة منذ عصر القاضي أبو يعلى إلى أثناء المائة الثامنة يطلقون لفظ القاضي ويريدون به أبا يعلى .
المدخل لابن بدارن (٢٠٤-٢٠٥) .

(٣) الكوكب المنير (١/٦٥-٦٦) .

(٤) التعريفات (١٧٢) .

(٥) شرح الأصول من علم الأصول لابن عثيمين (٢٥) . باب الأسماء والصفات مبنى على التوقيف والواجب على العبد في هذا الباب وغيره سلوك طريق الحق المتمثـــل في مذهب سلف الأمة – مذهب أهل السنة والجماعة – قـــال شـــيخ الإســـلام رحمه الله : (ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه بـــه رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييـــف ولا تمثيـــل ...) الفتـــاوى (٥/٢٦) . وأما باب الإخبار فهو أوسع من باب الصفات يقول ابن القيم رحمـــه الله : (إن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في بـــاب أسمائـــه وصفاته كالشيء والموجود والقائم بنفســـه فإنه يخـــبر بـــــه عنـــه ويـــدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا) بدائع الفوائد (١/١٦١) .

ذكر ذلك ابن القطان رحمه الله ؟ وعلل المنع بـــأن الـــيقين العلـــم بالشيء بعد أن لم يكن[1] .

والقواعد : جمع قاعدة، والقاعدة في اللغـــة : أصـــل الأُس .. والقواعد الأساس، وقواعد البيت أساسه[2] .

أما تعريف القاعدة في اصطلاح العلماء حيث يقولون قاعـــدةُ في هذه المسألة

والقاعدةُ في هذا الباب كذا فالمراد بها : القضايا الكليـــة الـــتي تعرف بالنظر فيها قضايا جزئية[3] .

مثال ذلك : (من صرف العبادة لغير الله فقد أشرك) .

وعلى هذا : فمن ذبح أو نذر أو سجد لغير الله ما حكمـــه ؟ حكمه أنه مشرك كيف عرفنا حكم هذه القضايا الجزئية ؟ بـــالنظر في القاعدة الكلية السابقة .

قوله : (ذكرها الله في كتابه) : فيه بيان لمصدر هذه القواعـــد وهو كتاب الله، وهذا مما تتميز به مؤلفات هذا الإمام أنها مبنية على الكتاب والسنة.

---

(١) فتح الرحمن (٢٠) .
(٢) " لسان العرب " ابن منظور (٤٣٤/٧) .
(٣) " شرح مختصر الروضة " للطوفي (١٢٠/١) .

القاعدة الأولى : (أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مُقرُّون بأن الله تعالى هو الـــرازق الخـــالق المدبر، وأن ذلك لم يدخلهم في الإسلام .

والدليل قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْـأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّـهُ فَقُـلْ أَفَلَـا تَتَّقُونَ﴾[١] .

١– معنى القاعدة :

أنَّ الكفار الذين بعث فيهم نبينا محمد صلى الله عليـه وسـلم كانوا من ذرية إسماعيل، وكانت فيهـم بقايـا من دين إبـراهيم عليه السلام، ولذلك لا عجب أنهم كانوا يقرون أن الله خـالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم[٢] لكن هل أدخلهم ذلك الإقرار في ديـن الإسلام وعصم منهم الدم والمال ؟

بيَّن المصنف بالدليل القاطع أنَّ ذلك لم يدخلهم في الإسلام بل حكم الله بكفرهم وأمر نبيه بقتالهم .

٢– لماذا قرَّر الإمام هذه القاعدة ؟

---

(١) يونس : الآية ٣١ .

(٢) قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : (.. عامة المشركين بالله يقـرون بأنـه لـيس شريكه مثله بل عامتهم مقرون أن الشريك مملوك له سواء كان ملكاً أو نبيـاً أو كوكباً أو صنماً ..) التدمرية (١٧٦– ١٧٧) .

إنَّ المتأمل في الواقع الذي عاصره الإمام وما آل إليه الحـــال في ذلك الزمان ليدرك سبب تقريره هذه القاعدة، حيث إنَّ كثيـــــراً من العامة المنتسبين إلى الإسلام وقعوا فيما ينافيه ؟ بصرف العبـــادة للمقبورين مع وجود طائفة من العلماء المقتدى بهم قد زينوا الحق في صورة الباطل، والإمام – رحمه الله – لم يكن بمعزل عن هذا الواقع بل كان له الإطلاع التام، الذي كان له أعظم الأثر في معرفة سبب انحرافهم، وهو الجهل بحقيقة التوحيد الذي بعث به النبي صـــلى الله عليه وسلم حيث أنهم يعتقدون أنَّ التوحيد الذي يجب على كـــل مكلف : هو توحيد الربوبية فقط .. وتصوروا جهلاً أو تقليـــداً أنَّ معنى شهادة أنَّ لا لإله إلا الله هو إثبات أنَّ الله هو الخالق القـــادر على الاختراع .. ولذا فإنَّ من وقع في بعـــــض المكفـــــرات : كالذبح لغير الله، والاستغاثة، ودعاء المخلوقين مما لا يقدر عليه إلا الله، لا يعتبر مرتداً ما دام أنَّه يعتقد أنَ المؤثر في هذا الكون هو الله وحده[1] .

ولذا قرَّر المصنف هذه القاعدة دفعاً ورداً لهذا الاعتقـــاد بـــأنَّ الكفار الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية و لم يدخلهم ذلك في الإسلام .

٣- وجه الاستدلال بالآية الكريمة للقاعدة، مع ذكـــر أدلـــة أخرى:

يمكن تلخيص انحراف عبَّاد القبور في مفهوم التوحيد أنهم ظنوا:

---

(١) " دعاوى المناوئين" عبد العزيز العبد اللطيف (١٩٣-١٩٤) .

أنَّ توحيد الربوبية هو الذي بعث به النبي صلى الله عليــه وســـلم وحصلت فيه الخصومة والقتال، وأنَّه تحصل به عصمة الدم والمال في الدنيا والنجاة في الآخرة، وأنَّ معنى لا إله إلا الله هو الإقرار أنَّ الله هو الخالق الرازق المدبر .

وقد ذكر المصنف – رحمه الله – ما يـــنقض هـــذا الاعتقـــاد بالدليل الواضح من القرآن ففي هذه الآية الكريمة على إيجازها البيان الشافي ومحصله في أمرين :

١- أنَّ المشركين كانوا مقرَّين بأنَّ الله هو خالقهم ورازقهـــم ومدبر أمرهم و لم يدخلهم ذلك في الإسلام، وهذا مـــا دل عليــه الجواب في قوله سبحانه : (فسيقولون الله) أي : رازقنـــا ومالـــك سمعنا وأبصارنا ومحيينا ومميتنا ومدبر أمرنا .

وأما الإقرار بأنَّ الله خالقهم، فقد بينه تعالى بقولـــه: ﴿**وَلَـــئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ .

٢- أنَّه لم يحصل بهذا الإقرار النجاة من النار وهذا ما دلَّ عليه ختام الآية حيث إنَّ الله طالبهم بالوقاية من عذابه فلو كانت الوقاية حاصلة بهذا الإقرار لما طالبهم .

يقول ابن جرير – رحمه الله – في قوله تعالى (ليقولن الله) أي : فسوف يجيبونك بأن يقولوا الذي يفعل ذلك كله الله (فقـــل أفـــلا تتقون) أي: أفلا تخافون عقاب الله على شرككم ودعائكم ربا غير من هذه الصفة صفته)[1]

([1]) تفسير ابن جرير (١١٤/٧) .

وأما زعمهم أنَّ معنى لا إلـــه إلا الله لا خـــالق ولا رازق ولا مدبر إلا الله أي : أن معناها بالمطابقة(١) توحيد الربوبية فيسير على كل مسلم وفقه الله تدبر كتابه والنظر في سيرة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته لقومه أن يتبين له بطلان هذا الاعتقاد حيـــث إنَّ الله بيَّن معناها في كتابه و لم يكل بيانها إلى أحد سواه(٢)، فبيَّن أنَّ معناها نفي وإثبات : نفي للعبودية الحقَّة عما سوى الله، وإثبـــات استحقاق العبودية لله وحده، يقول الله تعالى : **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْـــرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**(٣) .

ما هذه الكلمة التي جعلها الخليل في عقبه وقـــدم معناهـــا في مخاطبته لقومه من أنها البراءة من كل معبود وإثبات استحقاق العبادة لله الواحد الموجود ؟

---

(١) دلاله اللفظ على معناه تنقسم إلى ثلاثة وذلك أنه قصد باللفظ تمام المعنى فمطابقة لتطابق اللفظ والمعنى، وإن قصد به الدلالة على جزء ذلك المعنى لأن ذلك الجـــزء داخل في ضمن المعنى الموضوع له . وإن قصد به الدلالة على لازم ذلـــك المعـــنى فالتزام . ينظر شرح النونية الهراس (١٣٥/٢) . قال الشيخ عبد الرحمن بن قاســـم رحمه الله : (ومعنى هذه الكلمة العظيمة شهادة أن لا إله إلا الله لا معبـــود أي لا مألوه بحق إلا الله وحده دون كل من سواه بل كل مألوه سوى الله عـــز وجـــل فإلهيته أبطل الباطل .. وسيقت لتوحيد الألوهية مطابقة لا كما يقول بعض الجهلة إن معناها : لا يخلق ولا يرزق إلا الله .. فإنها وإن دلت عليه بطريق التضمن فهي موضوعة لتوحيد الإلهية الذي هو إفراد الله بجميع أنواع العبادة ..) حاشية ثلاثـــة الأصول (٥٠) ينظر تيسير العزيز الحميد (٦١/٦٠)

(٢) حاشية الأصول الثلاثة ابن قاسم (٥٣) .

(٣) الزخرف : ٢٦– ٢٨ .

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم إنَّ هذه الكلمة – هي لا إله إلا الله – لا يزال في ذريته من يقولها[1] .

وقال ابن كثير – رحمه الله تعالى – هذه الكلمة هي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان وهـــي لا إلـــه إلا الله[2].

وأيضاً مما يبين معنى لا إله إلا الله قوله تعالى : ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آَلِهَتِنَـــا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ**﴾ ففي هذه الآية الكريمة دليل واضح على أنَّ لا إله إلا الله ليس معناها مطابقة لا خـــالق ولا رازق ولا مـــدبر إلا الله، وهذا هو الذي فهمه المشركون، حيث إنهم استكبروا عن قولهـــا، ولو كان معناها ما أقروا به لما استكبروا عن قولها، إذاً مـــا الـــذي فهمه مشركوا قريش من هذه الكلمة ؟

هو معناها الحق، وهو ترك ما يعبد مـــن دون الله وإفـــراد الله بالعبادة وحده، ولذا قالوا : ﴿**أَئِنَّا لَتَارِكُوا آَلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ**﴾ ففهموا أنَّ معناها ترك الآلهة التي يعبدونها من دون الله .

ومما يؤكد فهمهم لمعناها الحق أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لما دعاهم لقولها « **قولوا : لا إله إلا الله**» أجابوه بقولهم : (أجعـــل الآلهة إلهاً واحداً إنَّ هذا لشيء عجابٌ)[3]

([1]) تفسير ابن كثير (١٢٩/٤) .
([2]) المرجع السابق (١٢٩/٤) .
([3]) ص : الآية ٥ .

ففهموا أنَّ معناها أن يجعل المعبود إلهاً واحداً . يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : (أي أَزَعَم أنَّ المعبود واحد لا إله إلا هو ؟ أنكـــر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى وتعجبوا من ترك الشـــرك بـــالله، فإنهم قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان، وأشربته قلوبهم ....)(١) .

فتبين بهذه الأدلة القرآنية أنَّ معنى (الإله) في كلمـــة التوحيـــد (المعبود) وهذا محل إجماع بين العلماء – رحمهم الله – خلافاً لمـــا يعتقده عبَّاد القبور من أنَّ معناها لا خالق أو قادر على الاختراع إلا الله، وأنهم إذا قالوا ذلك فقد بلغوا الغاية القصوى في التوحيد مهما فعلوا من عبادة غير الله(٢) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢٨/٤) .

(٢) تيسير العزيز الحميد سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب .

خلاصة شرح القاعدة الأولى

١–أن الكفار الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم كـــانوا مقرين بتوحيد الربوبية و لم يدخلـــهم ذلـــك في الإســـلام ويعصم منهم الدم والمال .

٢–أنَّ عباد القبور يعتقدون أن معنى لا إله إلا الله هو توحيـــد الربوبية، وأنه يدخل في الإسلام وأنه تحصل به عصمة الدم والمال وهذا باطل بدلالة الكتاب والسنة وإجماع المعتد بهم .

٣- القاعدة الثانية : أهم يقولون : ما دعوناهم وتوجهنـــا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة .

فدليل القربة قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾(١) .

ودليل الشفاعة قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَـــا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآيـــة(٢). والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة فالشفاعة المنفية: ما كانت تطلب من غير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله، والدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّـــةٌ وَلَـــا شَـــفَاعَةٌ وَالْكَـــافِرُونَ هُـــمُ الظَّالِمُونَ﴾(٣) .

والشفاعة المثبتة : هي التي تطلب من الله، والشافع مكـــرم بالشفاعة، والمشفوع له : من رضي قوله وعمله بعد الإذن، كما قال تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾(٤) .

هذه القاعدة تعد من القواعد المهمة؟ لما لها من تعلق بموضـــوع

---

(١) الزمر : الآية ٣ .

(٢) يونس : الآية ١٨ .

(٣) البقرة : الآية ٢٥٤ .

(٤) البقرة : الآية ٢٥٥ .

الشفاعة فإن المشركين في قديم الدهر وحديثه إنما وقعوا في الشرك ؟ لتعلقهم بأذيال الشفاعة .

وقبل البدء في بيان معنى القاعدة لا بد من معرفة معنى الشفاعة.

الشفاعة في اللغة : خلاف الوتر وهو الزوج وشفع يقال شفع شفاعة ويتشفع أي : طلب . والشفع : الشافع والجمع شـفعاء . واستشفعه طلب منه الشفاعة(١) .

وأما في الاصطلاح فقد عُرِّفت بتعاريف منها : التوسط للغـير بجلب منفعة أو دفع مضرة(٢) .

وهذا التعريف جامع لأنه شامل للشفاعة في الأمـور الدينيـة والدنيوية(٣) .

١- معنى هذه القاعدة :

كانت عبادة الأصنام تعد من أكبر مظاهر الشرك عند العـرب حتى اتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه، وكانـت بعـض قبائل العرب لها صنم تختص بعبادته فكان لطى وأنعـم (يغوثـاً) ولكلب (وداً)(٤) .

فكيف كان لهذه الأصنام النصيب الوافر من هذه العبادة مع أنها لا تعدو أن تكون مصنوعة من أخشاب وحجارة ؟

---

(١) " لسان العرب " لابن منظور (٨/١٨٣- ١٨٤) .
(٢) " شرح لمعة الاعتقاد " ابن عثيمين (١٢٨) .
(٣) " الشفاعة عند أهل السنة " ناصر الجديع (١٥) .
(٤) سيرة ابن هشام (١/٩٧) .

إن هذه الأصنام حقيقتها أنها موضوعة على شكل معبـــود غائب جعلت على شكله وهيئته وصورته ليكون الصنم نائباً مناب المعبود وقائماً مقامه، وإلا فلا يتصور أنَّ عاقلاً ينحـــت خشـــبه أو حجراً بيده ثم يعتقد أنَّه إلهه ومعبوده[1] .

لكن ما الذي حملهم على عبادتها مع إقرارهم أنها مخلوقة [2] وأن الله هو خالقهم ومالكهم ومدبر أمـــرهم وأنَّ الـــرزق بيـــده سبحانه؟

بيَّن الله في هذه الآيات الكريمة أنَّ الذي حملهم على ذلك هـــو طلب الشفاعة منها وأن تقربهم إلى الله زلفى، حيث أن المشركين لما أثبتوا الشفاعة للملائكة والأنبياء والصالحين صوروا تماثيلهم وقالوا استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم[3]، وقد حكم الله عليهم بالكفر والشرك .

٢- لماذا قرر الإمام هذه القاعدة ؟

قد سبق بيان أن سبب شرك الأولين هو طلب القربى والشفاعة حتى بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم فبين أن ذلك كفر وشـــرك وتنقص للرب، فجاهدهم في الله حق جهاده حتى تركوا ما عليـــه الآباء، وعبدوا الله وحده ولكن لم يقع بالحسبان أن يدور الزمـــان ليعود الأمر كما كان فيصبح عبَّاد القبور بالاعتذار عن الشـــرك في

---

(١) " إغاثة اللهفان " لابن القيم (١٨١/٢) .
(٢) " قاعدة في التوسل والوسيلة " لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣٨) .
(٣) المرجع السابق (٣٣) .

عبادة الرحمن بما اعتذر به سالفوهم من أهل الأوثان مـــن أنهـــم لا يريدون إلا الشفاعة والقرب من الله ؟

فقرَّر الإمام هذه القاعدة ليبيِّن أن ذلك عين شرك الأولين .

يقول المصنف – رحمه الله – : (الدعاء الذي يفعـــل في هـــذا الزمان أنواع .... [منها] أن يدعو الله ويدعو معه نبيـــاً أو وليـــاً، ويقول: أريد شفاعته، وإلا فأنا أعلم : ما ينفع ولا يضـــر إلا الله، ولكن أنا مذنب وأدعو الصالح لعله يشفع لي، فهذا الـــذي فعلـــه المشركون، وقاتلهم رسول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم حـــتى يتركوا)[١].

٣- بيان وجه الاستدلال بالآيتين الكريمتين للقاعدة :

دلَّت هاتان الآيتان على جملة من الحقائق :

١- أن صرف العبادة لغير الله طلباً للشفاعة، والقرب مـــن الله هو دين المشركين :

وقـــد صـــرَّح الله بهـــذا في أول الزمـــر يقـــول المصـــنف – رحمه الله تعالى – : (واقرأ أول الزمر تراه سبحانه يـــبين ديـــن الإسلام ودين الكفار ومطلبهم)[٢] .

٢- أن اتخاذ الشفعاء بين العبد وربه شرك وكفر شديد وتنقص لرب العالمين، وأن الاعتذار عن ذلك اعتذار كاذب لا يقبل : يدل

(١) " الدرر السنية " (٢/٨٣-٨٤) .
(٢) " الدرر السنية " (١/٦٠) .

لذلك ختام الآيتين الكريمتين، قوله تعالى : ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾ (٢) .

حيث إنه سبحانه لما بين موجب عبادة الكفار لغيره طلباً للشفاعة نزَّه نفسه الكريمة فعلم أن هذا الفعل منقصة للرب؛ لأنه كلما سبح الرب نفسه كان تنزيهاً عن أن يوصف بشيء من السوء(٣).

ووصف فعلهم بأنه شرك فمن فعل فعلهم كان من جملة المشركين.

وفي الآية الأخرى وصفه بأنَّه كفر شديد ؟ لأن كفار صيغة مبالغة تدل على أن كفرهم بلغ الغاية(٤) .

ومن شبه عباد القبور في اتخاذ الشفعاء أنهم قاسوا الرب تبارك وتعالى على ملوك الأرض فهم لا يسألون مباشرة؛ بل يوسطوا الشفعاء تعظيماً وتكريماً لهم فالله أولى بذلك .

جواب هذه الشبهة :

أن هذا محال وممتنع أن يشبه الرب تعالى ويقاس على الملوك والكبراء فبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام واتخذ المشركون من

---

(١) يونس : الآية ١٨ .
(٢) الزمر : الآية ٣ .
(٣) " شرح الباقيات الصالحات " لشيخ الإسلام (٣٦) .
(٤) فتح القدير للشوكاني (٤-٥١٥) .

دون الله الشفيع والولي .

وفساد هذا القياس هو وجود الفرق بين المخلـــوق والخـــالق والرب والمربوب، والمالك والمملوك، والغنى والفقير الذي لا حاجة به إلى أحد قط والمحتاج إليه من كل وجه، فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم وبهم تقوم مصالحهم وأعوانهم، فقيام أمـــر الملـــوك والكبراء بهم فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم ويخافون إن لم يقبلوا شفاعتهم أن تنقض طاعتهم لهم، فيذهبون عنهم فـــلا يجدون بداً من قبول شفاعتهم فأما الله فهو غني، غناه من لوازم ذاته وما سواه فقير إليه بذاته . قال تعالى: ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَـــا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ فـــأخبر أن حـــال ملكه للسماوات والأرض يوجب أن تكون الشـــفاعة كلـــها لـــه وحده، وأن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنـــه فإنـــه ليس بشريك بل مملوك محض بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم من بعض[١] .

ولما وضح المصنف أن شرك الأولين كان سببه طلب الشفاعة : بين أن النصوص دلت على أن الشفاعة على نوعين :

١- الشفاعة المنفية : وهي الـــتي نفاهـــا الله تعـــالى وأثبتـــها المشركون ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة[٢] .

وعرَّفها المصنف بأنَّها : ما كانت تطلب من غير الله تعالى .

ويمكن أن تعرَّف بأنها ما اختل فيها شرط من شروط الشفاعة

(١) إغاثة اللهفان (١/٢٠٣-٢٠٤)، ينظر تفسير السعدي (٧١٨) .
(٢) قاعدة في التوسل والوسيلة (٢٠٨) .

المثبتة .

واستدل لها بقوله تعالى : ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾(١) .

٢- الشفاعة المثبتة : وعرَّفها أنها ما كانت تطلب من الله.

ثم بيَّن رحمه الله أن لها شرطين :

١- الإذن للشافع .

٢- الرضى عن المشفوع له، بأن يكون من أهل التوحيد، لحديث أبي هريرة مرفوعاً : « من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : **من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه**» (٢) .

قوله (والشافع مكرم) : هذا فيه بيان الحكمة من الشفاعة حيث إن الله قادر على إنفاذ ما يحصل بالشفاعة ابتداءً فيقضى بين الخلق ويخرج العصاة ويرفع درجات بعض أهل الجنة من غير شفاعة؛ لكن الله في ذلك الحكمة البالغة فمن ذلك إكرام الشافع وذلك من وجهين :

١- ظهور فضل الشافع على المشفوع له .

(١) البقرة : الآية ٢٥٢ . احتج بعض أهل البدع من الخوارج والمعتزلة بأمثال هذه الآية التي فيها ذكر الشفاعة المنفية على نفي بعض أقسام الشفاعة المثبتة وقد أجاب أهل السنة عن هذه الاحتجاج ينظر " قاعدة في التوسل والوسيلة " (٣١) .

(٢) " فتح الباري " كتاب العلم (٥٢/١) .

٢- ظهور منزلة الشافع عند الله تعالى[١] .

وهناك مسألة تتعلق بالشفاعة، وهي : أن من دعا نبياً أو ولياً يريد منه الشفاعة فقط، فما حكمه ؟

يمكن أن نستخلص الجواب من هذه المقدمات الأربع :

١- أن الشفاعة نوع من الدعاء[٢] .

٢- أنها ملك لله جميعاً، قال تعالى : ﴿**قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾[٣] .

٣- أنها إذا كانت ملكاً لله فيجب طلبها منه سبحانه .

٤- أن من دعا غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك .

فالنتيجة : أن طلب الشفاعة من الموتى بالشرك .

يقول العلامة سليمان بن عبد الله : (فإن قلت : إنما حكم سبحانه وتعالى بالشرك على من عبد الشفعاء، أما من دعاهم للشفاعة فقط فهو لم يعبدهم، فلا يكون ذلك شركاً .

قيل : مجرد اتخاذ الشفعاء ملزوم للشرك، والشرك لازم له، كما أن الشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه وتعالى، والتنقص لازم له ضرورة، شاء أم أبى، وعلى هذا : فالسؤال باطل من أصله لا وجود له في التاريخ وإنما هو شيء قدره المشركون في أذهانهم، فإن الدعاء

(١) " القول المفيد شرح كتاب التوحيد " لابن عثيمين (٣٤٥-٣٤٦) .
(٢) " الفتاوى (١/٢٠٠) .
(٣) الزمر : الآية ٤٤ .

عبادة، بل هو مخ العبادة، فإن من دعاهم للشفاعة فقـــد عبـــدهم وأشرك في عبادة الله، شاء أم أبى)[١] .

ويقول الشيخ أحمد بن عيسى – رحمه الله تعالى – : (فقد أخبر تعالى : أن الشفاعة جميعها له، فمن طلبها من غير الله فقد طلبـــها ممن لا يملكها ولا يسمع ولا يستجيب، وفي غير الوقت الذي تقـــع فيه ولا قدرة له عليها إلا برضاه ممن هي له، وإذنه فيهـــا مقبـــول، فطلبها ممن هي له في دار العمل عبادة من جملة العبادات، وصـــرف ذلك لطلب لغيره : شرك عظيم ....)[٢] .

---

(١) " تيسير العزيز الحميد " (٢٣٧) .
(٢) " الرد على شبهات المستعينين بغير الله " (٤٧-٤٨) . ينظر الفتاوى (٢٤١/١-١٦٠-١٦١) .

خلاصة شرح القاعدة الثانية

١- أن صرف العبادة لغير الله طلباً للشفاعة والقرب من الله هو دين المشركين .

٢- أن اتخاذ الشفعاء بين العبد وربه شرك وكفر شديد وتنقص لرب العالمين .

٣- أن ادعاء عباد القبور أنهم قصدوا بالشفاعة تعظيم الرب لا يدل على أن ذلك تعظيم بل هو تنقص له فكم من قصـــد التعظيم لشخص وهو ينقصه .

٤- أن الشفاعة في كتاب الله على نوعين، شفاعة منفية وشفاعة مثبتة بشروطها .

٥- أن الحكمة من الشفاعة المثبتة إظهار فضل الشافع عنـــد الله وبيان منزلته.

٦- أن من دعا نبياً أو ولياً يريد منه الشفاعة فهو مشرك .

القاعدة الثالثة : أن النبي صلى الله عليه وسلم ظهر علـــى أناس متفرقين في عباداتهم : منهم من يعبد الملائكة، ومنهم مـــن يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجـــار، ومنهم من يعبد الشمس والقمر . وقاتلهم رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ولم يفرق بينهم .

والدليل قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُـــونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ (١) .

ودليل الشمس والقمر قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّـــهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(٢) .

ودليل الملائكة قوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ الآية(٣) .

ودليل الأنبياء قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية(٤) .

ودليل الصالحين قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُـــونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾

---

(١) الأنفال : الآية ٣٩ .

(٢) فصلت : الآية ٣٧ .

(٣) آل عمران : الآية ٨٠ .

(٤) المائدة : الآية ١١٦ .

الآية[١] .

ودليل الأشجار قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ الآية[٢] **وحديث أبي واقد الليثي – رضي الله عنه – قال : (خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحـن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطـون بها أسلحتهم، يقال لها : : ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا : يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) الحديث .**

١- معنى هذه القاعدة :

كان معظم العرب اتبعوا دعوة اسماعيل عليه السـلام حـين دعاهم إلى دين إبراهيم فكانوا يعبدون الله وحده ويدينون بدينـه حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظاً مما ذكروا به[٣] فوقعوا في الشرك فهم في كل واد يهيمون، منهم من يعبد الأصـنام الـتي هـي في حقيقتها عبادة للملائكة والأنبياء والصالحين، ومنهم مـن يعبـد الأشجار والأحجار حتى بعث الله نبيه المختار وهم على هذه الحال من المعبودات فأمر نبيه بقتالهم دون تفريق لأن علة القتـال محـو الشرك أياً كان وجعل الدين للواحد الديان.

٢- لماذا قرر الإمام هذه القاعدة ؟

---

(١) الإسراء : الآية ٥٧ .

(٢) النجم : الآية ١٩-٢٠ .

(٣) الرحيق المختوم المباركفوري (٣٩) .

لقد كان الإمام رحمه الله وأتباعه قائمين بأصل الـدين وهـو توحيده علماً وعملاً ودعوة مناهضين للمخالفين له من عباد القبور بالحجج البينات من الآيات الكريمات في كفر من عبـد الأوليـاء والصالحين من الأموات، فكان ردهم وجوابهم أنها نزلت فيمن يعبد الأصنام فكيف تجعلون الأنبياء والصالحين أصناماً ؟[١] فقرر المصنف رحمه الله هذه القاعدة ؟ ليبين أن المعبودات في زمن البعثة كانـت مختلفة، لم تكن مقصورة على عبادة الأصنام بل وجد من كان يعبد الملائكة والأنبياء والصالحين، ولم يفرق الله بينهم في الحكم يقـول المصنف – رحمه الله تعالى – : (اعلم أرشدك الله : أن الصـالحين، ويتبين لك هذا بأربع كلمات .....

أنهـم يقولون هذا فيمن يتشفع بالأصـنام، ونحـن نتشـفع بالصالحين، فاعرف قوله تعالى ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ**﴾ [٢] لعلـك تفهم جهالة أعداء الله بدين رسول الله)[٣] .

---

(١) كشف الشبهات (٢٩-٣٠) .
(٢) الإسراء : الآية ٥٧ .
(٣) " الدرر السنية " (١/١٦٠) .

أما مضمون هذه القاعدة فهو أمران :

١- عموم الأمر بالقتال لكل من عبد غير الله، ســـواء كـــان المعبود صنماً، أو ولياً أو شجراً أو حجراً، واستدل بقولـــه تعـــالى ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾(١) .

ووجه الاستدلال، أن علة القتال هو جعل الدين لغير الله، وهذا يعم كل من عبد غير الله سواء كان المعبود صنماً أو نبياً أو ولياً أو حجراً .

٢- أن المعبودات في زمن البعثة كانت مختلفة فمـــن ذلـــك : عبادة الشمس والقمر : واستدل لها بقوله تعالى : ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْـــجُدُوا لِلشَّـــمْسِ وَلَـــا لِلْقَمَـــرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾(٢) .

المشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك صنفان :

قوم نوح وقوم إبراهيم .

فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم، وقوم إبراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر(٣) .

---

(١) الأنفال : الآية ٣٩ .
(٢) فصلت : الآية ٣٧ .
(٣) قاعدة في التوسل والوسيلة (٣٩) .

ويسمون بالصابئة المشركة[١] كانوا في العراق كما قص الله في سورة الأنعام، ثم ظهر هذا الدين في سبأ حيث عبدت الشمس كما بيَّن الله في سورة النمل .

وكان من أصنام العرب صنم اسمه شمس به سموا (عبد شمس) وكذلك جعلهم شمس من أسماء الآلهة وقد ذكر أن بعض كنانة عبدوا القمر[٢] .

وقد دان بدين الصابئة كثير من أهل الشام وأهل اليمن وانحسر بتتابع الديانات الجديدة[٣] وقد نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في وقت طلوع الشمس وغروبها منعاً لمشابهة الكفار وسداً لذريعة الشرك ؟ لأنه أخبر أنها تطلع وتغرب بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار[٤] .

ومن المعبودات في زمن البعثة عبادة الملائكة : واستدل لها بقوله تعالى ﴿**وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا**﴾[٥] .

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (الصابئة أمة كبيرة من الأمم الكبار وقد اختلف الناس فيهم اختلافاً كثيراً وهم منقسمون إلى مؤمن وكافر كما قال تعالى {**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**} إغاثة اللهفان (٢/٢٠٣) .

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١١/٢٩٩) .

(٣) الرحيق المختوم (٤٦-٤٧) .

(٤) الحديث أخرجه مسلم برقم (٨٣٢) .

(٥) آل عمران : الآية ٨٠ .

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى : ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ**﴾(١).

فالله يسأل الملائكة هل أمروا المشركين بعبادتهم فينزهون الله أن يكون معه إله ويبينون أن الداعي إلى عبادتهم هم الجن يعنون بهم الشياطين(٢) .

يخاطبونهم ويعينونهم على أشياء وهم يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة وهم يعبدون الجن في الحقيقة(٣) .

ومن المعبودات في زمن البعثة عبادة الأنبياء : واستدل لها بقوله تعالى ﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾(٤) .

ومن المعبودات أيضاً عبادة الصالحين واستدل لها :

بقوله تعالى : ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**﴾ (٥) .

قال المصنف – رحمه الله تعالى : (قال طائفة من السلف : كان

---

(١) سبأ : الآية ٤٠-٤١ .
(٢) تفسير ابن كثير (٣/٨٦٢) .
(٣) قاعدة في التوسل والوسيلة (٣٩) .
(٤) المائدة : الآية ١١٦ .
(٥) الإسراء : الآية ٥٧ .

أقوام يدعون المسيح، وعزيراً والملائكة، فقال الله لهـــم : هـــؤلاء عبيدي كما انتم عبيدي، يرجون رحمتي كما ترجونها، ويخـــافون عذابي كما تخافونه)[١] .

وقد اختلف في عزير، هل هو نبي أم لا ؟

قال ابن كثير – رحمه الله – المشهور أنه نبي من أنبيـــاء بـــني إسرائيل وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى[٢] .

وبهذا يتبيَّن أن هذه الآية الكريمة تتحدث عن عبادة الملائكـــة والأنبياء، وقد سبق أن بيَّن المصنف الدليل على ذلك وإنما ذكرهـــا ليستدل على عبادة المشركين للصالحين، فكيف يتم الاستدلال بهـــا على ذلك ؟

يمكن الاستدلال بها من وجهين :

١- أن الأنبياء والملائكة هم أصلح الخلق .

٢- أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي متناولـــة لكل من عبد من دون الله ممن يتقرب إلى الله ويرجوه، فيـــدخل في ذلك الصالحون من غير الأنبياء .

مع أنه قد وجد في زمن البعثة من يعبد الصالحين من البشر من غير الأنبياء، فقد عبدت النصارى أن عيسى عليه الســـلام، قـــال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْـــتَ قُلْـــتَ لِلنَّـــاسِ**

(١) " الدرر السنية " (١٤٥/١) .
(٢) البداية والنهاية (٤٣/٢-٤٤) .

اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [(١)] .

وقد عبـــد اللات، وكان رجـــلاً يَلُتُّ السويق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره[(٢)] .

وهذا المعنى ثابت على قراءة التشديد في الآية : (اللاَّت) علـــى قراءة ابن عباس رضي الله عنه .

ومن المعبودات في زمن البعثة عبادة الأشجار والأحجار :

واستدل لها بقوله **﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَـــاةَ الثَّالِثَـــةَ الْأُخْرَى﴾**[(٣)] . وكانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ...

أما عبادة الأشجار : فالشاهد لها : أن العزى كانت شـــجرة عليها بناء وأستار بنخلة[(٤)] .

وأيضاً دليل عبادة الأشجار من السنة : حديث ذات أنـــواط وهو ظاهر الدلالة، حيث أن هؤلاء المشركين كانوا يعكفون عنـــد هذه السدرة تبركاً بها .

---

(١) المائدة : الآية ١١٦ .
(٢) " تفسير القرآن العظيم " (٤/٢٥٥) .
(٣) النجم : الآية ١٩-٢٠ .
(٤) المرجع السابق (٤/٤٥٥) .

خلاصة شرح القاعدة الثالثة

١- أن المعبودات زمن البعثة كانت مختلفة فلم تكن مقصـــورة على عبادة الأصنام بل عبد الأنبياء والصالحين وغيرهم فعلى هذا تكون الآيات التي نزلت في الشرك على عمومها تتناول كل ما عبد من دون الله ومن جملة ذلك عبادة الصالحين .

٢- عموم الأمر بقتال كل من عبد غير الله سواء كان المعبـــود ملكاً أو نبياً أو صالحاً .

٣- بطلان مسلك عبَّاد القبور في قصرهم الآيات التي نزلت في الشرك على عبادة الأصنام ليسوغوا بها عبادة الصالحين .

٤- القاعدة الرابعة : أن مشركي زماننا أغلظ شركاً مـــن الأولين : لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشـــدة، ومشركو زماننا شركهم دائماً في الرخاء والشدة .

والدليل قوله تعالى ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْـــكِ دَعَـــوُا اللَّـــهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْـــرِكُونَ﴾ [1] والله أعلم . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

١- معنى هذه القاعدة :

هذه القاعدة في غاية الوضوح والبيان إلا أنهـــا تـــثير الهمـــوم والأحزان على من ينتسب لدين الإسلام خير الأديان، وكيف أنـــه فاق شركهم الأولين وأصبح شركهم في كل وقت وحـــين، أمـــا أولئك فقد كانوا وقت الشدائد والأهوال يخلصون الدعاء للواحـــد المتعال .

٢- لماذا قرَّر الإمام هذه القاعدة :

ذكر المصنف رحمه الله غرضه ومقصوده بهذه القاعدة في ثناياها حيث أنه يريد تقرير ما بلغ به شرك أهل زمانه وأنه أغلظ من شرك الأولين يقول المصنف– رحمه الله تعالى – : (واعلم أن المشركين في زماننا قد زادوا على الكفار في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم يدعون الملائكة والأولياء والصالحين، ويريدون شفعتهم والتقـــرب

---

(١) العنكبوت : الآية ٦٥ .

إليهم، وأنهم مقرُّون بأن الأمر لله فهم لا يدعونها إلا في الرخاء، فإذا جـــاءت الشدائـــــد : أخلصوا لله)[١] .

وقد بيَّن المصنف رحمه الله وجه كون شرك المتأخرين أغلظ من شرك الأولين وذلك من وجهين :

١- أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكـــة والأوليـــاء والأوثان إلا في حال الرخاء .

٢- أن الأولين يدعـــون مع الله أناساً مقربين عند الله، إمـــا أنبياء وإما أولياء، أو ملائكة، أو يدعون أشجاراً وأحجاراً مطيعـــة لله، ليست عاصية، أما المشركون المتأخرون فإنهم يدعون مـــع الله أناساً من أفسق الناس، والذين يدعونهم هم الذين يحكـــون عنـــهم الفجور من الزنا والسرقة، وترك الصلاة ....[٢] .

ثم استدل المصنف – رحمه الله – على أن المشركين الأولـــين كانوا يخلصون العبادة لله وحده في وقت الشدائد والأهوال بقولـــه تعالى : ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ**﴾ .

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى - : (ثم أخبر تعـــالى عـــن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك لـــه، فهـــلا يكون هذا منهم دائماً ....

---

(١) " الدرر السنية " (٦٧/١) .
(٢) " كشف الشبهات " (٢٩-٣٠) .

وقد ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبي جهل أنه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ذهب فاراً منها، فلما ركـــب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها : يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا ينجى منها إلا هو، فقال عكرمة : والله لإن كان لا ينجى في البحر غيره، فإنه لا ينجى في البر أيضاً غيره، الهم لك عهد لأن أخرجت لأذهبن فلأضعن يـــدى في يـــد محمد، فلأجدنه رؤوفاً رحيماً، فكان كذلك ..)[1] .

ومع مضى عصر الإمام وتقادم الزمان وذهاب تلـــك الصـــور والأبدان فهل يظن ظان أن هذه العقائـــد الشـــركية عنـــدما درج أقوامها[2] دفنت بموت أصحابها ؟ كلا ولا يحتاج الأمر إلى إقامـــة حجة وإيضاح محجة .

فكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

فبزيارة بعض مقابر بلاد أهل الإسلام أو بحضور مولـــد مـــن موالدهم يتبين لك تعلق القلوب بالأموات ودعائهم عند المدلهمات .

إلى الله نشـــكو غربـــة الـــدين والهـــدى
وفقدانـــه مـــن بـــين مـــن راح أو غـــدا
فعـــــاد غريبـــاً مثلمـــا كـــان قـــد بـــدا
على الدين فليبكـــى ذووا العلـــم والهـــدى

---

(١) " تفسير القرآن العظيم " (٤٠٦/٤) .

(٢) يقال : درج القوم إذا انقرضوا . اللسان (٢٦٦/٢) .

هذا حال العامة منهم ولا عجب إن وجد من يزين لهـــم دين أبي جهل وأبي لهب يقول أحدهم : (من تذلل عند قبر نـــبي أو ولي، وتوسل به، لا يقال إنه عبده من دون الله تعـــالى، لأن مجـــرد النداء والاستغاثة والخوف والرجاء لا يسمى عبادة شرعاً، ولو سمى عبادة لغة ...

وأما الدعاء : فليـــس جميعه عبادة، إلا إذا دعونا من نعتقد فيه صفات الربوبية، أو صفة واحد منها ....)[١] أهذا قول يقولـــه مسلم فضلاً أن يقوله من ينتسب إلى زمـــرة العلمـــاء — التـــذلل والاستغاثة والخوف والرجاء والدعاء ليست من العبادات الشرعية – ! ألا يعلم هذا أن هذه العبادات القلبية هي من أصول الإيمـــان وقواعد الدين وأصل عمل الجوارح، وهي واجبة على جميع الخلـــق المأمورين باتفاق أئمة الدين[٢] قال الله تعالى ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ وقال تعالى : ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّـــي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ .

وقال تعالى : ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ وقال تعالى : ﴿**فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ وقال تعالى : ﴿**إِنَّهُمْ كَـــانُوا يُسَـــارِعُونَ فِـــي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾ . وما أصدق

---

(١) " التنديد بمن عدد التوحيد " (٢٥) .

(٢) " التحفة العراقية في الأعمال القلبية " شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٣-٢٥) .

قول القائل في عبَّاد القبور .

كثيراً ما يضمر الإنسان في نيته أمراً وهو لا يشعر به، وكثيراً ما تشتمل نفسه على عقيدة خفية لا يحس باشتمال نفسه عليهـــا ولا أرى مثلاً لذلك أقرب من الذين يلتجؤون في حاجاتهم ومطالبـــهم إلى سكان القبور، ويتضرعون إليهم تضرعهم للإله المعبود، فـــإذا عتب عليهم في ذلك عاتب، قالوا : إنا لا نعبدهم، وإنما نتوسل بهم إلى الله، إن أكبر مظهر لألوهية المعبود : أن يقف عباده بين يديـــه ضارعين خاشعين، يلتمسون إمداده ومعونته ولذا فهم في الحقيقـــة عابدون لأولئك الأموات من حيث لا يشعرون، إن الله لن يســـعد أقواماً [ما داموا] إذا نزلت بهم جائحة، وألمت بهم ملمة، ذكروا الحجر قبل أن يذكروه، ونادوا الجذع قبل أن ينادوه، إنكم تقولون في صباحكم ومسائكم، وغدوكم ورواحكم كل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف .

فهل تعلمون أن السلف الصالح كـــانوا يجصصـــون قـــبراً، أو يتوسلون بضريح ؟ وهل تعلمون أن واحداً منهم وقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم، أو قبر أحد من أصحابه وآل بيته ليسأل قضاء حاجة، أو تفريج هم ؟ وهل تعلمـــون أن الرفـــاعي والدســـوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله، وأعظم وسيلة إليه من الأنبيـــاء والمرسلين، والصحابة والتابعين ؟

وهل تعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل : نهى عنها عبثاً ولعباً، أم مخافة أن تعيد للمسلمين

جاهليتهم الأولى ؟ وأي فرق بين الصور والتماثيل، وبين الأضرحة والقبور[١]، ما دام كل منها يجـــر إلى الشـــرك، ويفســـد عقيـــدة التوحيد[٢].

---

(١) الأضرحة والقبور إذا عبدت : تكون أوثاناً، لما روى مالك في الموطـــأ (١٧٢/١) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « **اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد** .... » الحديث .

(٢) " النظرات " لمصطفي المنفلوطي (٨٥/٨١) .

خلاصة شرح القاعدة الرابعة

١- أن المشركين المتأخرين أشد شركاً من الأولين .

٢- أن عبادة القبور باقية إلى اليوم يوجد من يزينها ويدعو لها .

وبهذا تم شرح هذه القواعد والحمد لله رب العالمين والصـــلاة والسلام على نبينا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفهـــــــرس